التصوف وأثره في شخصية سعيد النورسي وكتاباته

محمد توفيق رمضان *

التصوف بين مؤيديه ومعارضيه

ومسألة التصوف والطرق الصوفية، التي يرى البعض أنها ضرورية لتحقيق تزكية النفس وتهذيبها من ظاهر الإثم وباطنه، ويرى آخرون أنها انحراف صريح عن الإسلام وخروج عليه؛ إنما اكتنفها هذا الجدل بسبب التشويه الذي أصابها على يد أصحابها بالذات قبل غيرهم.

بادئ ذي بدء لا بد لي من بيان ما هو موضع اتفاق من قبل الجميع، كي نقطع الطريق على تصور الخلاف الذي يمكن أن يجعل مسألة التزكية أو التصوف أو ما شئت لها من التسمية موضع نقاش.

1- لا خلاف في أن علينا جميعاً أن نجعل إمامنا ومرجعنا في التزامنا بديننا الحنيف كتابَ الله وسنة رسوله e. وإن مخالفة كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- انحراف مرفوض، مهما كانت الأسباب. فالله -سبحانه- يقول: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً)(1).

2- ينبغي ألاّ يكون ثمة خلاف في أن تزكية النفس وتطهيرها من ظاهر الإثم وباطنه واجب شرعي. فالله -تعالى- يقول: (وذروا ظاهر الإثم وباطنه)(2) ويقول: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)(3). وغني عن البيان بأن ظاهر الإثم آثام الجوارح، كالغيبة والنميمة والنظر إلى المحرمات وأكل أموال الناس بالباطل، ونحو ذلك. وأن باطن الإثم ما يمكن أن تنطوي عليه نفس المرء من عيوب وآثام كالكبر والحقد والرياء والحسد. ولا شك أن كلا النوعين من الذنوب يجب أن نهذب النفس منه، وأن نجتهد في تجنبه. ولكي يتمكن المرء من تزكية نفسه من ظاهر الإثم وباطنه لا بد من سلوك طريق يوثق صلة العبد بربه، ويوقظ في قلبه مشاعر المراقبة لله والخشية منه والحب له. ولئن سمى بعضهم هذا الطريق تصوفاً أو سماه بغير ذلك من التسميات فإن ذلك لا ينتقص من عظيم أهميته وخطورة شأنه.

3- لا أرى اختلافاً في أن الأجدى لتربية المرء على الأخلاق الحميدة، ومعالجة ما بالنفس من أخلاق ذميمة، يتطلب وجود مرشد حكيم يتولى تربية من هم في عهدته، من خلال كونه القدوة الحسنة في سلوكه وأخلاقه وعباداته، وبالتزام منهج تربوي صحيح مستمد من أصول شرعية.

4- لا خلاف في أن البدع الدخيلة على الدين، والمخالفة لنصوصه يجب نبذها وتجنبها،

عملاً بقوله -عليه الصلاة والسلام-: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ"(4).

معنى التصوف الذي أعنيه في موضوعي

من خلال ما وجدته في كتب أئمة أهل التصوف، ومما عرفته في أصل هذا المنهج أنه في حقيقته لا يتجاوز هدفين اثنين هما:

- تعميق الحقيقة الإيمانية المتمثلة بالدرجة الأولى بتوحيد الله -سبحانه-، لتتجاوز القناعة العقلية الراسخة، إلى التمكن من القلب والتعمق في الوجدان حباً وخشية وحياء نحو من يستحق منا ذلك، وهو الله -تعالى- وحده، وليظهر أثر ذلك على جوارحنا سلوكاً والتزاماً بحدود الله -تعالى- وشريعته.

- تزكية النفوس بحيث تسمو إلى معارج التقى والصفاء والإخلاص، فلا رياء ولا كبر ولا- عجب ولا- حسد ولا حقد في القلب، ولا معاص تلوث الجوارح، وتبعد صاحبها عن ربه سبحانه وتعالى، تطبيقاً لقوله -تعالى-: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من زكاها) وقوله -جل شأنه-: (وذروا ظاهر الإثم وباطنه).

وأساس هذين الأمرين مستمد من الكتاب والسنة، فلا يقبل عند أئمة هذا المنهج تجاوز للكتاب والسنة بحال من الأحوال.

فقد كتب الشيخ أبو القاسم القشيري رسالته المشهورة بالرسالة القشيرية حول هذا الموضوع ذاته..فعرف بأهل التصوف قائلا(اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم من البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة5)(...) ونقل رحمه الله عن أبي سليمان الداراني أنه قال: (ربما يقع في قلبي النكتة (أي الحكمة) من نكت القوم(أي الصوفية) أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.)(6) ونقل عن الجنيد البغدادي قوله: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر (أي التصوف) لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)(7) ويقول الشيخ أحمد الرفاعي: (أحكموا أعمالكم على الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، قال رسول الله e: "بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا- إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان" إياكم ومحدثات الأمور قال عليه الصلاة والسلام: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد")(8) وفي هذا يقول ابن تيمية، موضحاً أن أمور التصوف من أصول الإيمان وقواعد الدين: (أما بعد فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب التي قد تسمى المقامات والأحوال. وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله وإخلاص الدين له، والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك..)(9).

بهذا المعنى للتصوف كان يعيش الاستاذ بديع الزمان، ومن هذا المعين الثر العذب كان يصوغ رسائله ويلقنها لتلاميذه. ولئن لم يقل بأنه منتهج لطريقة صوفية، فإن ذلك لا يغير من هذه الحقيقة شيئاً.

وهو إن لم يسم منهجه تصوفاً فهو إنما فعل ذلك بغية توسيع دائرة منهجه الدعوي لتتسع أكثر مما كان صوفيو زمانه ينهجون، والذين ضيقوا دائرة دعوتهم ضمن نطاق التربية الوجدانية، والعلاقة بين الشيخ والمريد، في كثير من الأحيان. فدعوته إلى الله -سبحانه- اتسعت لتكون ترجماناً للمنهج القرآني الشامل للحقيقة التربوية التي يهدف إليها أهل التصوف، والمشتملة على الحقائق العقلية التي يخاطب بها الذين أعشت أعينهم الضلالات الفكرية السائدة آنذاك، ولسائر جوانب الإسلام التي تصحح حياة الفرد والمجتمع، وترسم العلاقة الصحيحة مع الحق ومع الخلق.

موقف الأستاذ بديع الزمان من التصوف:

كان للأستاذ بديع الزمان فهمه الدقيق للحقيقة الصوفية، ضمّنه تلويحات تسعة من كتابه: "حقيقة نورلري" أو "أنوار الحقيقة" إذ يقول: (توجد تحت أسماء التصوف والطريقة والولاية والسير والسلوك حقيقة حلوة نورانية منشطة قدسية روحانية. حتى إن محققي أهل الذوق والكشف قد ألفوا آلاف الأسفار في إيضاح وإعلان وتدريس تلك الحقيقة القدسية، وبينوها لنا وللأمة جزاهم الله عن الجميع خير الجزاء. ونحن بناء على ضرورة هذا العصر نبدي بعض رشحات من ذلك البحر المحيط.) ثم يعرف بالطريقة فيذكر أنها معرفة الحقائق الإيمانية وتذوقها بالحال والشهود الذي يسمو بصاحبه إلى درجة الكمال البشري. ويشير إلى ضرورة تآزر القلب والدماغ(أو العقل والوجدان) لتحقيق هذا المعنى: ولذلك يقول في شأن القلب: (والواسطة لكبرى لتحريك القلب وترقيه في مراتب الولاية ومسلك الطريقة مع ذكر الله -تعالى-: التوجه إلى الحقائق الإيمانية)

وفي **التلويح الثاني** من تلويحاته حول حق الطرق والولاية، يوضح فوائد الذكر على المرء في حياته الدنيوية، فيذكر أن الذكر يحرره من قسوة الحياة المادية التي تعود على المرء بظلمات الهموم والأحزان، وينقلهم إلى تذوق حلاوة الاستئناس بالله، وعندئذ يشعر بالسعادة.

وفي **التلويح الثالث** يشير إلى ما يمكن أن يفسر بما يسميه أهل التصوف بالحقيقة والشريعة، وأنهما متكاملان، بهما يتحقق كمال إسلام العبد، وباجتماعهما يتذوق المرء حقائق هذا الدين. والذين يعيشون في الشريعة ولا يتصلون بمذاق الحقائق يغلقون خزائن من الدرر واليواقيت التي يحتويها هذا الدين في أسرار حقائقه، ويفقدونه من ماء الحياة أو ما يسميه كوثر نبع ماء الحياة.

ويحذّر من ليس لهم نصيب من ذلك المورد العذب من أنهم على خطر، يمكن أن تودي بهم دسائس زندقة هذا الزمان. ثم يشير إلى أن سبيل مقاومة إغراءات وشبهات الدعوات الباطلة أنوار مجالس الذكر التي تحصن إيمان المؤمنين وتحمي دينهم.

ولكن هذا لا يعني أنه كان يؤيد واقع التصوف الذي شاهده في عصره. لذلك نجده يشير إلى غلاة جهلة أهل التصوف ويرد على ترهاتهم، كم في التلويح السابع إذ يقول: (فتصور

الشريعة قشراَ والحقيقة لباَ ونتيجة وغاية له، كما هو ظن بعض أهل التصوف، ليس بصواب...ثم يقول: ينبغي أن لا تخرج الطريقة والحقيقة عن كونهما وسيلتين وخادمتين للشريعة، وأن لا تتجاوزا إلى مرتبة المقصودية بالذات. فإذا كان المقصود بالذات تطبيق السنة السنية فإن التزام أحكام الشريعة وتطبيقها هو الاتباع الرسمي للسنة المحمدية. وإن ميل القلب إلى الجهة أخرى، بأن يتصور حلقة الذكر أفضل من الصلاة، وانجذابه إلى الأوراد أقوى من توجهه إلى الصلاة، وفراره من مخالفات الطريقة أشد من فراره من الكبائر، مع أن أوراد الطريقة كلها لا تقابل واحداً من الفرائض التي أمرت بها الشريعة، ولا تنوب مناب فرض واحد من الفرائض، فذلك خطأ محض. فلا بد أن تكون آداب الطريقة وأوراد التصوف بمثابة متمم لنيل الذوق الحقيقي بالفرائض. لا أن يجعل غايته تلك الآداب والأوراد. إن الذي يتصور أن صلاة المسجد تصلى بالعجل وإنما يجد الذوق الحقيقي في زاويته بعيد عن الحقيقة.)

ويتابع في **التلويح الثامن** الرد على غلو بعض جهلة الصوفية، والمفرطين منهم في ما سماه (ثماني ورطات)، من ذلك: ترجيحهم مرتبة بعض رجالهم على مرتبة بعض الأنبياء، أو الصحابة. وتفضيلهم أوراد الطريقة التي تندرج في نوافل عموم لذكر على الأذكار المأثورة عن النبي e، وما يذهب إليه بعضهم من اعتبار الإلهام أو الكشف الذي قد يناله بعضهم بمثابة الوحي(10). ويشير إلى أولئك الذين تعلقوا بالكرامات، وتشوفوا إلى نيلها أو ادعوها لأنفسهم ليوهموا العامة برفيع منزلتهم. كما أشار إلى خطأ أولئك الذين اكتفوا بأشباه الأولياء، ممن يدعون منازلها، بينما هم بعيدون عن نيل مراتبها، أو أولئك الذين يرجحون الفخر والدلال والشطحات... على الشكر والابتهال والاستغناء عن المخلوقين، وهي أعلى المراتب، لأنها المرتبة التي تشرف بها النبي e.ثم يشير إلى أولئك الذين غدا تصوفهم لوناً تعجل ثمرات التقرب إلى الله -تعالى- لينالها في الدنيا.

وفي **التلويح التاسع** يذكر للطريقة تسع فوائد:

- أولها أن الطريقة سبيل ليغدو المرء مؤمناً حقا، يسمو إيمانه ليبلغ درجة (عين اليقين) ولعله يقصد ما قاله النبي e "أن يعبد الله كأنه يراه...".

- وفي الثانية أن الطريقة تهتم بالقلب الذي إذا صلح صلح الجسد كله، ليرقى بصاحبه إلى مرتبة الإنسانية الحقيقية.

- وفي الثالثة يشير إلى توثيق الصلة مع طبقات الذين مضوا إلى الحياة البرزخية. فهم وإن مضوا إلى تلك المرحلة فإن الصلة بهم أنس وتأييد قوي للقلب.

- وفي الرابعة يوضح أن الهدف بلوغ درجة الحب، وهو ما يشير إليه الحديث القدسي الصحيح: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...) الحديث.

- وفي الخامسة يوضح هدفاً أو فائدة للطريقة، وهي أن يتحول أداء المرء للتكاليف

الشرعية إلى نوع من التمتع بالعبادة والتقرب إلى المولى –سبحانه-، وهذا بالتالي يؤدي إلى:

- الثمرة السادسة وهي أن يتلذذ ويستأنس بما يقربه إلى الله ليرتقي في مراتب القرب إلى مرتبة التوكل والتسليم والرضا.

- وفي السابعة يبين ثمرة في غاية الأهمية هي التخلص من الرياء والتصنع بواسطة تزكية النفس، لتنجو من مهالك الأنانية.

- أما الثمرة الثامنة فهي أن تغدو بذلك كله وبالحضور والشهود الدائم عاداته لوناً من العبادات. بينما تظل عبادة الغافل لوناً من العادات التي يمارسها وهو غافل عن مولاه.

- وفي التاسعة والأخيرة يذكر فائدة عظيمة هي الفوز بحقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام، فيتحرر من رق الحوادث، ويمارس وظيفة الخلافة عن مولاه، ويطير إلى ربه بجناحي الحقيقة والشريعة(11).

على هذه القاعدة الواضحة بنى الأستاذ منهجه الدعوي، ولم يشأ أن يسمى منهجه تصوفاً، وإن كان موقفه من التصوف قد أوضحه فيما أسلفت. لتكون دعوته مسمى لا إسماً، وحقيقة لا دعوى.

أثر التصوف في شخصية الأستاذ بديع الزمان ورسائله:

نجد بديع الزمان قد اصطبغت شخصيته بتلك المعاني التي ذكرها للطريق وفوائده، كما نجده يركز في رسائله على تلك الأهداف التي ذكرها، وإن لم يسمِّ مسلكه في الدعوة والإرشاد طريقة.

إنه قد ذاق، وهو يريد أن ينقل طيب طعم ما ذاقه إلى قراء رسائله. وليس كل من يتكلم أو يكتب يملك أن ينقل إلى الآخرين الذوقيات الوجدانية. يقول في المثنوي العربي: (ما في نون (نعبد) من سر الجماعة يصور للمصلي المتنبه سطح الأرض مسجداً اصطف فيه مع المصلي جميع المؤمنين، ويرى نفسه في تلك الجماعة العظمى. وبما في إجماع الأنبياء والأولياء على ذكر (لا- إله إلا- الله) من توافق الأصوات يتيسر للذاكر أن يرى الزمان: (حلقة ذكر) تحت رئاسة إمام الأنبياء... يذكرون الله بصوت يسمعه من ألقى السمع وهو شهيد. فإن كان حديد السمع والبصيرة سمع ذكر مجموع المصنوعات أيضا، ورأى نفسه في حلقة ذكرها).(12)

ويثني الشيخ على السادة النقشبندية في طريقتهم بالذكر الخفي، ويرى لها أعظم الأثر في معالجة آفات النفس سواء المتمثلة في آفة الأنانية والتكبر، أم في آفة الغفلة التي هي رأس كل آفة. وفي الوقت ذاته لا- ينكر فضل الذكر الجهري(13) ، ويؤكد هذا الثناء على أصحاب الطرق وأئمتها من أمثال الشيخ الجيلاني والسيد الرفاعي والشيخ الشاذلي، رضي الله عنهم، في منهجهم التربوي الذي يربط قلوب المريدين بربهم بسلاسل الذكر،

ليدرك العبد بذلك حقيقة ضعفه، فيلوذ بباب مولاه، لا يعول على الدنيا ولا على زخارفها(14).

ثم يحلّق في عالم محبة الله وتعظيمه، مستعرضاً آيات الله في خلقه مستنطقاً إياها معاني تعظيم الله -سبحانه- وبديع آلائه. وهو يعيش مع معاني قوله -سبحانه- (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده) يقول: (إن عظمة وسعة هذه الآية اقتضت تفسيراً فتوجه إليها فترشحت متقطرة منها في قلبه كلمات مفسرة لها، وسلم مرقاة للصعود إليها. فإن أحببت أن ترشف تلك القطرات المفسرات المترشحات من معان تلك الآية والنازلات من سموات عظمتها فاستمع بقلبٍ شهيد...) واقرأ معه تلك المناجاة البديعة التي يحلق فيها في معاني تلك الآية وفيها يقول: (سبحانك ما أعظم سلطانك وأوضح برهانك، سبحانك ما ذكرناك حق ذكرك يا مذكور بألسنة جميع مخلوقاتك وبذوات جميع مصنوعاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك...) ويتابع تلك المناجاة، أو القصيدة البديعة من قصائد الحب والتعظيم للمولى -سبحانه-، مستعرضاً كل شيء يسبح بحمده، موضحاً مظاهر تسبيح الأشياء، من مثل قوله: (سبحانك يا من تسبح لك طبقات الجو بأفواه رعودها وبروقها ورياحها وسحابها وشهابها وأمطارها، بكلمات لمعاتها وقطراتها، بلسان نظامها في ميزانها في غاياتها وثمراتها..)(15).

ويقول في الكتاب نفسه، مستلهماً من قوله -تعالى-: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) وقوله -سبحانه-: (ففروا إلى الله) مقاصد للذكر ومعاني يحرض على تذوقها واستحضارها: (اعلم أيها السعيد القاصر العاجز الفقير أن في نفسك قصوراً بلا نهاية، وعجزاً بلا غاية، وفقراً بلا انتهاء، واحتياجاً بلا حد، وآمالاً بلا عد. فكما أودع فيك الجوع والعطش لمعرفة لذة نعمة الله -تعالى-، كذلك ركبت فيك من القصور والفقر والعجز والاحتياج لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله -سبحانه-، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته، وبميزان عجزك إلى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجاتك إلى أنواع نعمه وإحسانه. فغاية فطرتك هي العبودية، والعبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ: " أستغفر الله " و"سبحان الله" وفقرك بـ: "حسبنا الله " وبـ "الحمد لله" وبالسؤال وبالعجز بـ "لا حول ولا قوة إلا بالله" وبـ"الله أكبر". وباستمداده ليظهر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته.)(16).

عوامل في تكوين هذا الجانب في شخصية الأستاذ بديع الزمان:

ولكي لا أمضي في الجزئيات التي قد لا أصل منها إلى نتيجة ذات أهمية؛ لا بد لي أن أشير إلى عوامل مهمة أدت بأستاذنا إلى التحليق في تلك الآفاق التي قلّ من يتذوقها من دعاة اليوم، مع أنها هي حقيقة الدعوة وروحها، أو قل هي حقيقة هذا الدين. لعل من أبرز تلك العوامل أمرين اثنين:

الأمر الأول: المقومات الأولى في تكوين شخصية بديع الزمان من حيث العلم والتربية والورع، وهي كثيرة ومهمة بلا شك. (أشير إلى بعض تلك المقومات: غزارة علمه

وذكاؤه المتميز، والصلة الروحية المبكرة بينه وبين الشيخ عد القادر الجيلاني، والتي تنم عن صلة قائمة قبل الرؤيا، حيث رآه في الرؤيا وأمره الشيخ أن يتوجه إلى أحد الكبراء ليأمره بالصلاة، وكان من نتيجة ذلك أن انصاع الرجل لنصح الشيخ، ومن ذلك تورعه في مطعمه ومشربه. وغضه لبصره...).

والأمر الثاني: هو ذلك التحول الذي جرى في شخصية الأستاذ بعد عودته من الأسر، والذي كان نتيجة عدة أمور، أشار إليها في سيرته الذاتية. أحدها شعوره ببوادر الشيخوخة ونذر دنو الأجل لتكون بداية ميلاد شخصية سعيد الجديد. والآخر تأثره بالشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني من خلال كتابه (فتوح الغيب) إذ يقول الشيخ: (وأصبح الشيخ الجيلاني - رضي الله- عنه أستاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه "فتوح الغيب"، وصار الإمام الرباني (أحمد السرهندي الفاروقي) -رضي الله- عنه كذلك بمثابة أستاذٍ أنيسٍ ورؤوفٍ شفيقٍ بكتابه "المكتوبات" فأصبحت راضياً كلياً وممتناً من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومتعها الزائفة**...**](17).

وعامل ثالث لا مجال لإغفاله، أعني أنه عامل في تكوين شخصيته المتميزة بتلك النفحة الروحانية، التي قد تسمى تصوفاً: أوراده وأذكاره التي كان حريصاً ودؤوباً عليها، وقيامه الليل، وكثرة تلاوته القرآن.

****

الهوامش:

*) كاتب من سورية.

[1]- سورة النساء، آية:59.

2 - سورة الأنعام، آية:120.

3 - سورة الشمس، آية:9.

4 - رواه البخاري في كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود: ج2/ص959.

5 - عبد الكريم أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، ص19.

6 - المصدر نفسه ص59.

7 - المصدر نفسه ص72.

8 - البرهان المؤيد: ص20.

9 - شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع فتاوى المجلد العاشر ص5 الطبعة المغربية(طبعت بأمر الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود).

10 - بل إن بعضهم يعد ما يراه في منامه، إن صدق أنه راى في منامه، بمثابة الوحي ويبني عليه أحكاماً قد ينسخ بها نصوصاً ثابتة ومبادئ شرعية.

11 - جميع التلويحات ومت تفرع عنها من كتاب: تلويحات تسعة من كتاب أنوار الحقيقة من رسائل النور. ترجمة الشيخ أمين الفاروقي.

12 - المثنوي العربي النوري، ط2 استانبول 1994 ص162.

13 - المرجع نفسه: ص192.

14 - المرجع ذاته، ص271.

15 - المرجع ذاته، ص388.

16 - المثنوي العربي، ص364. والسيرة الذاتية ص: 158.

17 - سيرة ذاتية، ص160.